المبحث الثامن عشر

رحلة التزكيـة

رحلة التزكية

سبحانك يا الله، جعلت الحمد شكرًا لنعمائك ولعطائك، وجعلت الحمد هو البداية، وجعلت الحمد هو النهاية.

دعواهم فيها، سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم، أن الحمد لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٥٢].

والصلاة والسلام على أسعد مخلوقاتك، وأكمل أهل أرضك وسماواتك، صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر، وصاحب الشفاعة العظمى، اللهم صلِّ وسلم و بارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، عدد ما أحاط به علمك، وجرى به قلمك، ونطقت به ملائكتك، وشهدت به ملائكتك، وأحصاه كتابك .

اللهم اجعلنا ممن تُفتح لهم أبواب الرحمات، اللهم اجعلنا من الذين يقال لهم: هلموا إلى ربكم، هلموا إلى مغفرة ربكم، هلموا إلى عفو ربكم، هلموا إلى العتق من النيران رحمة من ربكم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس:٢٢].

وأيُّ شيء يمنعني مِن أن أعبد الله الذي خلقني، وإليه تصيرون جميعًا؟ رحلة التزكية إذا ما نظرت إلى السماء وجدتها صافية في حالتها الأساسية، والله ﷻ من علامات قدرته ومظاهر إعجازه في القرآن العظيم، فمن قدرته أنه يبدأ بالسماء أولًا، رغم أن الشخص منا الآن الأرض أقرب إليه، وإلى رجليه وإلى حركته في الحياة، ولكن مظاهر العظمة، ومظاهر النقاء، ومظاهر الصفاء تجدها في السماء قوية، وانظر ماذا قال لك الملك في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦].

أي: أغَفَلوا حين كفروا بالبعث، فلم ينظروا إلى السماء فوقهم، كيف بنيناها مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، وزيناها بالنجوم، وما لها من شقوق وفتوق، فهي سليمة من التفاوت والعيوب!

كيف بنيناها، فالكيفية أي ليس فيها ثغرات أو اعوجاج، وهي على حالتها المستوية التي خلقها الملك ﷻ، وبعد ذلك في الآية التي جاءت بعدها قال الملك في كتابه الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [ق: ٧].

أي: والأرض وسَّعْناها وفرشناها، وجعلنا فيها جبالًا ثوابت; لئلا تميل بأهلها، وأنبتنا فيها من كل نوع حسن المنظر نافع، يَسُرُّ ويبهج الناظر إليه.

ثم قال: وأنبتنا لك من كل شيء موزون، فدائمًا القرآن يبدأ بالسماء من مظاهر العظمة الكبرى، التي نرى آثارها ونستشعرها ونستشعر قدرة الله تعالى فيها، كما في قوله تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴾ [النازعات:٢٧]، أي: أَبَعْثُكم أيها الناس بعد الموت أشد في تقديركم، أم خلق السماء؟

وكل إنسان يبني بيتًا، أو يبني قصرًا، أو يبني شيئًا عظيمًا فريدًا فلابد أن يأتي الناس بعد أن ينتهي من هذا البناء، وبعد أن يشيد هذا البناء ويقال (لكن) أو يقال: "كان ينبغي أن يفعل"، وهذا البناء جميل، ولكن ينقصه كذا، أما خلق الله تعالى، وأما السماوات السبع، ومظاهر عظمة الله ﷻ لا يأتي بعدها إلا سبحانك اللهم كما جاء في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران:١٩١].

أي: الذين يذكرون الله في جميع أحوالهم: قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، وهم يتدبرون في خلق السماوات والأرض، قائلين: يا ربنا ما أوجدت هذا الخلق عبثًا، فأنت منزَّه عن ذلك، فاصْرِف عنا عذاب النار.

الإنسان كلما يرى نفسه عظيمًا شديدًا قويًّا، وملك شيئًا من هذه الأرض، وحاز من قصورها، وجمالها، وزخارفها، فإنه ينظر إلى عظمة الملك ﷻ،

والملك يقول لك كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٢].

تلاحظ هنا أن الله تعالى ﷻ تباركت أسماؤه بدأ لك بالسماء، ثم بالأرض، ثم بالجبال، هذه مظاهر العظمة الحقيقية، كلمة البناء توحي لك بعظمة عملية البناء حتى إن الله ﷻ عندما تحدث في سورة الكهف عن سيدنا موسى، وسيدنا الخضر عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧].

أي: فذهب موسى والخَضِر حتى أتَيَا أهل قرية، فطلبا منهم طعامًا على سبيل الضيافة، فامتنع أهل القرية عن ضيافتهما، فوجدا فيها حائطًا مائلاً يوشك أن يسقط، فعدَّل الخَضِر مَيْلَه؛ حتى صار مستويًا، قال له موسى: لو شئت لأخذت على هذا العمل أجرًا تصرفه في تحصيل طعامنا؛ حيث لم يضيفونا ﴿... فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧].

أي: كل عملية بناء لها أطراف، ولها أدوات، و لها مساعدون، ولها كذا وكذا كل بناء على وجه الأرض يؤديه أطراف، أما ملك الله، وأما ما خلق الله تعالى، فإن الله تعالى قوي، فإن الله تعالى كبير، فإن الله تعالى فوق المظاهر والأشباه، وأن الله تعالى فوق ما يرد في عقلك لا تقل: كيف بناها؟ ولا تقل: كيف رفعها؟ إنما رفعها بقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧].

والله تعالى هو خالق السماوات والأرض على غير مثال سبق، وإذا قدَّر أمرًا وأراد كونه فإنما يقول له: كن، فيكون .

دائمًا مع كل إعجاز للملك تقول: سبحانه؛ لأنك لا تستطيع أن تستوعب كل هذه الأشياء أو كل هذه الأسرار، تخيل ذات مرة وأنت خارج من بيتك لصلاة الفجر أو إلى صلاة الظهر فوجدت الدنيا بلا سماء هل تخيلت هذا المنظر الموحش؟ وما سيجري عليك بعدها؟ فقال لك الملك في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٢].

أي: وجعلنا السماء سقفًا للأرض لا يرفعها عماد، وهي محفوظة لا تسقط، ولا تخترقها الشياطين، والكفار عن الاعتبار بآيات السماء (الشمس والقمر والنجوم)، غافلون لاهون عن التفكير فيها.

لأجل هذا كله فإن الصفاء، وإن النقاء كله، وإن الشفافية كلها في لون السماء، ومن العجب أن حالة الزرقة، أي اللون الأزرق الذي في السماء يميل إلى أن يكون فاتحًا، وقد لاحظت بعد صلاة الفجر، وأن السماء متفتحة بالبياض والأزراق أكثر من كونها بالزرقة، سبحان الله! حالة من التمازج الذي يوحي لك بقول الملك ﷻ وتباركت أسمائه كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق: ٦].

فالسماء في حد ذاتها زينة، لونها زينة، شكلها زينة، جمالها زينة، ما أبقت لك من قلبك إلا أن يكون قلبك صافيًا غير متكدر، وإلا أن يكون قلبك رقراقًا غير صلب، ولا قاسٍّ هذه، المعاني كلها نستشعرها معك كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك:٥].

أي: ولقد زيَّنا السماء القريبة التي تراها العيون بنجوم عظيمة مضيئة، وجعلناها شهبًا محرقة لمسترقي السمع من الشياطين، وأعتدنا لهم في الآخرة عذاب النار الموقدة يقاسون حرها.

الزينة إضافة إلى شيء من الثبات، أي في حالة من الاستقرار في السماء، فأراد الله تعالى أن يزينها كما أن هناك حالة من الاستقرار في الأرض الحياة

ثابتة في الأرض، فيها أناس كثيرون أنهار أي في هذه الأرض، فأراد الله تعالى أن يزين هذه الأرض، فقال الملك في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦].

أي: الأموال والأولاد جَمال وقوة في هذه الدنيا الفانية، والأعمال الصالحة وبخاصة التسبيحُ والتحميد، والتكبير والتهليل أفضل أجرًا عند ربك من المال والبنين، وهذه الأعمال الصالحة أفضل ما يرجو الإنسان من الثواب عند ربه، فينال بها في الآخرة ما كان يأمُله في الدنيا، أراد أن يزين حاة الناس، فيها فزينها بالمال والبنين، فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٥]، أي أن الله تعالى خلق السماء، و جعل لها حُراسًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٩].

أي: وأنا كنا قبل ذلك نتخذ من السماء مواضع; لنستمع إلى أخبارها، فمن يحاول الآن استراق السمع يجد له شهابًا بالمرصاد، يُحرقه ويهلكه، وفي هاتين الآيتين إبطال مزاعم السحرة والمشعوذين، الذين يدَّعون علم الغيب، ويغررون بضعفة العقول؛ بكذبهم وافترائهم .

فمن يستمع الآن بعد سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه الكرام، يجد له شهابًا رصدًا، فالذي يريد أن يخترق السمع، وأن يخترق الأجواء العليا التي لا ينبغي اختراقها فإن الله تعالى، قال: يأتي له شهب ونيازك حارقة في الحال؛ فتحرق الجن الذين يسترقون السمع؛ لأجل هذا جعل الله تعالى لهذه السماء بعظمتها حُراسًا، لكن الجميل الذي أقوله لك: هو أن الله تعالى، قال: أأنتم أي رب العالمين يسألكم يقول لك راجع نفسك: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: الإنسان كما ذكر الملك ﷻ عن بعض السابقين الذين استطاعوا أن ينشئوا حضارات عظيمة كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ [الفجر].

أي: ألم تر أيها الرسول الكريم كيف فعل ربُّك بقوم عاد، قبيلة إرم، ذات القوة والأبنية المرفوعة على الأعمدة، التي لم يُخلق مثلها في البلاد في عِظَم الأجساد، وقوة البأس؟ لا يوجد حضارة على وجه الأرض لا أمريكا، ولا روسيا، ولا غيرهم، ولا اليابان، ولا الصين، تستطيع أن تصل إلى هذه الحضارة، ولا تستطيع الدول جميعها أن تفعل كما فعل ذو القرنين، لا تستطيع؛ لأن الذي مكن له في الأرض هو الله ﷻ، وليس القوة التي يزعمون، أي قوم عاد فلما وصلوا إلى هذه الحالة من الشدة، والقوة ومن الزهزهة الحضارية، ومن الفتنة الحضارية قالوا كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت:١٥].

فأما قوم هود، فقد استعلَوا في الأرض على العباد بغير حق، وقالوا في غرور: مَن أشد منا قوة؟ أولم يروا أن الله تعالى الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوة وبطشًا؟ وكانوا بأدلتنا، وحججنا يجحدون، ﴿... هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ...﴾

وانظر الفراعنة يقول: الدولة العظمى، وليس العظيمة، وتناسوا أن العظمة كلها لله الواحد القهار، الدولة العظمى هذه عندما تكون هناك طائرة في مطار من مطاراتها لها موعد معين فتأتي بعض الريح أو بعض الأعاصير أو تأتي عاصفة فإن جميع المطارات تتوقف، فماذا فعلت القوة العظمى، ويأتي إعصار فيدمر مدنًا ومدنًا ومدنًا وماذا فعلت القوة العظمى؟ و يأتي زلزال فيدكهم دكًّا، ويأتي بركان فيهزهم هزًّا، ماذا فعلت القوة العظمى؟ إن القوة العظمى كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

أي: ومع كل هذه البراهين القاطعة يتخذ فريق من الناس من دون الله أصنامًا، وأوثانًا، وأولياء يجعلونهم نظراء لله تعالى، ويعطونهم من المحبة،

والتعظيم، والطاعة، ما لا يليق إلا بالله وحده، والمؤمنون أعظم حبًّا لله من حب هؤلاء الكفار لله ولآلهتهم؛ لأن المؤمنين أخلصوا المحبة كلها لله، وأولئك أشركوا في المحبة، ولو يعلم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك في الحياة الدنيا، حين يشاهدون عذاب الآخرة، أن الله هو المتفرد بالقوة جميعًا، وأن الله شديد العذاب.

لما اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم من دونه، ويتقربون بهم إليه، ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وتحدث الله تعالى عن عاد عندما قالوا كما في قوله تعالى: ﴿... وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ...﴾

هذا نوع من التحدي، ونوع من الفرعنة، ونوع من القسوة، فرد الله تعالى عليهم ﴿..أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥]

وهذا النوع من التعبير أو الكلام يقال له: مقارعة الحِجة بالحِجة من أشد منهم قوة، فلو قال: الله أشد منكم قوة، فهذا أمر مسلم به لا خلاف عليه، ولكن الله ﷻ أراد أن يذكرهم بأن الذي خلقهم وهو الذي أعطاهم القوة، وبفعل هذه القوة التي أعطاهم إياها وأقاموا الحضارات، وشيدوا الإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وما شيدوها إلا بقوة الله ﷻ، وبقدرة الله تعالى الذي أعطاهم أيادٍ قوية، وأعطاهم أفكارًا وأعطاهم هندسة فلكية، وأعطاهم أشياء كثيرة استطاعوا أن يفعلوا هذا من أين جيء لهم بهذه القوة، وهذا العطاء، وهذا النفوذ فالشيطان سول لهم أن هذا من أنفسهم، هذه قدرتكم أنتم، وهذه حضارتكم فمن أشد منا قوة، فرد عليهم الملك الرحمن الرحيم قائلاً: ﴿... أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥].

ولذا قال الملك ﷻ موضحًا عظمته وشدته وقوته في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٢٧ -٣٢]

أيهم أصعب في الخلق؟ وليس هناك شيء صعب على الله تعالى أبدا، وليس هناك شيء مستحيل على الله تعالى أبدًا، فإن الله تعالى قال: أأنتم أيها الناس أشد خلقًا أم السماء بناها وأغطش ليلها، بمعنى أنه لم يكن هناك ليل قبل هذا كان الليل والنهار على شاكلة واحدة، أي: لا تميز فيها بين الليل والنهار، سبحان الله هذا شيء عجيب في بداية الخلق، ولا يعلم هذا إلا الله ﷻ.

كما ذكرها من قبل فى سورة الإسراء عندما قال لك الملك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]

أي: وجعلنا الليل والنهار علامتين دالَّتين على وحدانيتنا وقدرتنا، فمَحَوْنا علامة الليل، وهي القمر وجعلنا علامة النهار وهي الشمس مضيئة؛ ليبصر الإنسان في ضوء النهار، كيف يتصرف في شئون معاشه، ويخلد في الليل إلى السكن والراحة، وليعلم الناس من تعاقب الليل والنهار عدد السنين، وحساب الأشهر والأيام، فيرتبون عليها ما يشاءون من مصالحهم، وكل شيء بيَّناه تبيينًا كافيًا.

هذا معنى قوله تعالى: و أغطش ليلها، أي: صار مظلمًا ولم يكن ليلها مظلمًا من قبل، وهو الخالق ﷻ، وهذه آيات من القدرة التي لا نهاية لها، لو استشعرنا معاني هذه الآيات نتزلزل مع هذه الآيات؛ حيث تجد أن الله ﷻ يريد أن يعيشك الآيات، وفي الوقت نفسه لا تأخذك العزة بما يصل إليه بعض الناس من اعتزاز بحضارتهم وأنفسهم وبقدرتهم، ولأجل هذا فإن كل ما فعله البشر على وجه الأرض من أهرامات الفراعنة، وسور الصين العظيم.... إلخ كل هذه الأمور، كان الجن يفعلون أكثر منها وأقوى منها، وأشد منها في عهد سيدنا سليمان عليه السلام، وكانوا ينشئون ولا يزالون.

إن الله تعالى يقول لنا: كلَّما وصلت إلى شيء من القوة والغرور، تذكر أن الواهب هو الوهاب، وأن المعطي القدير هو رب الملك والملكوت، هو ذو الجلال والإكرام، القائل كما جاء في قوله تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان:٢٨].

أي: ما خَلْقُكم أيها الناس، ولا بَعْثُكم يوم القيامة في السهولة، واليسر إلا كخَلْق نفس واحدة وبَعْثها، إن الله سميع لأقوالكم، بصير بأعمالكم، وسيجازيكم عليها .

ويقول الله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٧].

أي: لَخَلْق الله السماوات والأرض، أكبر من خَلْق الناس، وإعادتهم بعد موتهم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن جميع ذلك خلقه هيِّن على الله.

اللهم اجعلنا من سعداء الدنيا والآخرة، اللهم نورنا بنور القرآن، وزينا بزينة القرآن واجعلنا ممن أحبوا القرآن؛ فانطلقوا بالقرآن آناء الليل وأطراف النهار .

وأن يكون قلبك دائمًا في حالة نقاء، وأن تكون لك خصلة صالحة، هكذا نعود إلى الخصلة الصالحة مرة ثانية فقد كان سفيان الثوري رحمه الله له خصلة صالحة.

حيث كان سفيان الثوري يحب الصدقة، ويحب أن يتصدق، وربما يكون بشيء بسيط، ربما يكون بتمرة، ربما يكون بشيء يبدو لك هينًا، لكنه عند الله تعالى عظيم؛ لأن الله تعالى ينمي هذه الصدقات، وكان ﷺ إذا قابل فقيرًا، أو سأله سائل فكان يقول: مرحبًا بمن تغسل به ذنوبي؛ أي: أن الإنسان لكي تغسل ذنوبه عندما يشعر بقسوة في قلبه، عندما يشعر بجمود عينيه، أي كان بَكَّاءً فانقطع البكاء عندما يشعر أن لسانه ليس ذاكرًا ولا ذكارًا،

ومن قبل كان ذاكرًا، وكان ذكارًا كان يتصدق فإن الله تعالى يغيثه، ويجبر كسر قلبه، فإن الله تعالى يدخله في باب موجبات الرحمات.

ومن موجبات الرحمات أن الإنسان يبحث عن أشياء تغسل ذنوبه، مما يغسل به الذنوب، ومما كان يفعله سفيان الثوري رحمه الله تعالى: أنه كلما رأى فقيرًا فإنه كان ينادي على الفقير ويعطيه ما تيسر، ويجعل يده هي السفلي، ويد الفقير هي العليا، ثم يقول له: مرحبًا بك لقد غسل الله تعالى ذنوبي بك؛ ولذا قال الملك عن الشيء الذي يزكيك والذي يطهرك والذي يغسل أوزارك ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣].

أي: خذ أيها النبي من أموال هؤلاء التائبين الذين خلطوا عملًا صالحًا، وآخر سيئًا صدقة تطهرهم مِن دنس ذنوبهم، وترفعهم عن منازل المنافقين إلى منازل المخلصين، وادع لهم بالمغفرة لذنوبهم، واستغفر لهم منها، إن دعاءك واستغفارك لهم رحمة وطمأنينة، والله سميع لكل دعاء وقول، عليم بأحوال العباد ونياتهم، وسيجازي كلَّ عامل بعمله.

تطهرهم، أوليس هذا كافيًا يا رب أن الإنسان عندما يتصدق يتطهر، أي: لا تبقى عليه خطيئة واحدة، و يصير طاهرًا مطهرًا إذن تظل الصدقات بابًا من أبواب طهارة القلب، وطهارة النفس، وطهارة العمل، وفي الوقت نفسه فإن الإنسان يتزكى بها، أي: يتطهر بها ويتنور بها، وإذا ما تطهر بها صار فالحًا، و صار من المفلحين، فقال لك الملك في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

أي: قد فاز مَن طهر نفسه من الأخلاق السيئة، وذكر الله، فوحَّده ودعاه، وعمل بما يرضيه، وتزكى أي تطهر وتطهر؛ أي: تصدق وتصدق، أي بذل المعروف، وبذل المعروف أي صار مفتاحًا للخير، ولو لم يمتلك مالاً لا

مشكلة، ولكن عندنا ما هو أفضل من المال تصدق بالكلمة الطيبة تعالَ صلِّ العصر، عندما تسمع الآذان، ولا تسمع أغاني في جميع الأوقات، وساعة الصلاة لا تسمع أغاني، ولا تشغل مكبرات الصوت في الأشياء اللاهية العابثة، تصدق بالكلمة، على سبيل المثال: يقول أنا لست خطيبًا بارعًا ولا خطيبًا مفوهًا ولا إمامًا فصيحًا، ولا أعرف كلمات الوعظ، ولكني أستمع جيدًا، وكذلك التصدق بكف آذاك عن الناس أي أنت داخل في باب الرحمة شئت أم أبيت، لكن بشرط أن تكون مستعدًا لها، حتى قديمًا قالوا: يُثاب المرء رغم أنفه، أي: الشخص يُثاب رغم أنه لم يكن ساعيًا إلى باب الثواب، ولكنه أثيب رغم أنفه، كمن كان في الشارع وهو ليس مصليًا ولا من أهل الصلاة، فقابل رجلاً له عنده حاجة ثم جاء ميعاد الصلاة، وقال له: تعالى نصل، فذهب وصلى معه لحيائه لكونه له حاجة لديه لعل صلاته هذه تكون بابًا له من أبواب الخير، لعل قلبه يدق بالإيمان في هذه اللحظة، فيُثاب المرء رغم أنفه .

كمن كان في غير رمضان فاستيقظ من النوم في الصباح الباكر يبحث عن طعام في منزله فما وجد فقال: سأصوم هذا اليوم، يجوز هذا في أيام التطوع أن الإنسان لم يكن عاقداً النية على الصيام. كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤].

والذي يعمل أعمالًا حرفية كالذي يعمل في الفلاحة أو في فرن أو في أعمال السباكة... أي: من هؤلاء تُقام عليهم الحضارات أصحاب القوة وهو يشتغل يخرج من الشغل كل يوم يغتسل أو يغير ملابسه بعد أن يعود من العمل وقد اعتراه عرق شديد ولكنه لا يستحم كل يوم يأتي عليه عرق أشد فصارت رائحته لا تطاق، فقال له أحد الناس: لماذا لا تستحم؟ قال له: ليس عندي وقت لهذا، فقال له: أتدري ما جلبت على نفسك؟ لقد جاءتك أمراض جلدية وكذا وكذا و... ألا تزكي نفسك؟ أي: كلما أرهقت

نفسك واتسخت ملابسك فإنك تغيرها أو تستحم، قال له: سأفعل قال له: هكذا الصلاة .

لقد قال النبي ﷺ: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم، ويغتسل فيه كل يوم خمسًا، ما تقول ذلك يبقى من درنه شيئًا**»[1] .

ماذا يفعل بعد هذا: هل يبقى من درنه شيء بعد هذا؟ قالوا: لا يا رسول الله، نظيف، وطاهر. قال ﷺ: «**كذلك مثل الصلوات الخمس؛ يمحو الله بهن الخطايا**» ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ**﴾ [الأعلى:١٤].

من تطهر ومن نقى نفسه لله تعالى، وإن أفضل سبيل للتزكية والتنقية وأي كل إنسان بعد الاغتسال والوضوء يستشعر براحة تامة مجرد أنه يفتح الماء ويتوضأ ويسري الماء في وجهه وفي يديه والذنوب تتناثر وتتناثر يستشعر براحة عجيبة، بعد أن يستشعر هذه الراحة كيف يستغل هذه الراحة بعد أن اغتسل وتطيب وذكر اسم ربه؟

إن كل تزكية هي في الأساس ذكر لله تعالى، والذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت، كما أخبر المعصوم ﷺ، «**مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت**»[2] أي أنه ذكر اسم ربه؛ فهم إلى الصلاة.

فقد كان يقول النبي ﷺ: «**يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها**»[3] شوقنا بها يا بلال، خذنا إليها يا بلال فقال لك الملك ﷻ كما قال تعالى: ﴿**إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ**﴾ [طه:١٤]، أي: إنني أنا الله لا معبود بحق إلا أنا، لا شريك لي، فاعبدني وحدي، وأقم الصلاة لتذكرني فيها.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة، رقم الحديث: ٤٩٧.
(٢) صحيح البخاري، كتاب: الدعوات، باب: فضل ذكر الله عز وجل، رقم الحديث: ٥٩٢٨.
(٣) سنن الترمذي، كتاب: الأدب، باب: في صلاة العتمة، رقم الحديث: ٤٣٣٣.

هنا قدم الصلاة على الذكر في سورة طه، وكما جاء في قوله تعالى في سورة الأعلى: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٥]، أي: وأقام الصلاة في أوقاتها؛ ابتغاء رضوان الله وامتثالا لشرعه.

قدم الذكر على الصلاة أي: أن الإنسان قبل أن يأتي ليصلي لابد وأن يكون قلبه ولسانه في حالة ذكر، وفي حالة خشوع، وفي حالة رجاء لله تعالى ﷻ، كذلك عندما يتجه ناحية القبلة لابد وأن يستقبلها بدعاء الاستفتاح الذي تحدثنا عنه من قبل .

إن الذي يسبح وقتًا طويلًا حتى يأتي ميعاد الصلاة يقول: أنا أذكر الله، ذكرك في صلاتك، هدايتك في الصلاة، وأقم الصلاة لذكري، إذا ما أقمت الصلاة؛ فإنك صرت في هذه البداية ذاكرًا، ويمكن أن تكون ذكَّارًا لله ﷻ، علمنا كيف نتزكى؟ وكيف أُزكى نفسي؟ وكيف أطهر قلبي؟ فقل له كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾

[النازعات: ١٧ – ١٨]

أي: هل أتاك أيها الرسول خبر موسى؟ فقل له: أتودُّ أن تطهِّر نفسك من النقائص، وتحليها بالإيمان، أي: يا موسى فقل هل لك أن تزعم يا فرعون؟ أنك متعاظم هل لك يا فرعون أن تذوق حلاوة الإيمان؟ هل لك إلى أن تزكى؟ الإنسان الذاكر إذا كان ذاكرًا فعلًا، يستطيع أن يؤدي أعمالًا كثيرة في وقت واحد، أي من الممكن للإنسان أن يسمع ويشاهد، وفي الوقت نفسه فإنه يؤدي أعمالًا أخرى، فضلًا عن كونه شاهدًا وعن كونه مستمعًا.

اللهم لا تعذب هذه الأيدي المتضرعة، اللهم لا تعذب هذه الألسن الذاكرة، اللهم لا تعذب هذه الأعين الدامعة، اللهم لا تعذب هذه الأقدام الساعية، اللهم لا تعذب هذه القلوب الوجلة.

اللهم لا تعذب هذه الوجوه الناضرة، واجعلها يا ربنا إليك يوم القيامة ناظرة، يا ربنا لا تعذب ألسنة تخبر عنك، يا ربنا لا تعذب ألسنة تحبب الناس في رحمتك.

اللهم لا تعذب أعينًا تشتاق إلى شرف النظر إلى وجهك الكريم، اللهم نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الكرام، صلاة مقرونة بالجمال والحسنى والكمال، والخير والإفضال، عدد الأقطار، وعدد ورق الأشجار، وعدد زبد البحار، وعدد الأنهار، وعدد رمل الصحارى والقِفار، وعدد ثقل الجبال والأحجار، وعدد أهل الجنة والنار، وعدد الأبرار والفجار، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

****